# الذباب لا يموت في الطين

بقلم

احمد لطاشم الشريف

* فازت هذه القصة بالجائزة الأولى لمجلس الفنون عام ١٩٦٢ .
* وفاز مؤلفها بالجائزة الاولى لعام سنة ١٩٦٣ أيضا .

دخل الى حجرة مكتبه في الصباح ، الساعة تعدت التاسعة بقليل ، لكنه لا يشعر بأي نشاط كان مرهقا من تأثير سهرة الامس مع زملائه الجدد . وأعصابه مشدودة كالقوس اقل حركة تكفي لانطلاق السهم . يبدو ان عيده التومرجي لاحظ ذلك ـ وله في مثل هذه الامور باع طويل ـ فراى أن السلامة في الابتعاد عنه وتجنب ثورته ـ لم يجرؤ حتى على الاقتراب منه ليلقي عليه تحية الصباح .

وجلس الى مكتبه بانفعال ، يفتح درجا فدرجا في صبر ويرسم خطوطا مبهمة بسبابة يده اليمنى على غطاء المكتب ، ويفتش في الادراج عن شيء ، أي شيء يسليه في هذا اليوم ، ويدفع عنه سأم الملل الذي أحاط به في الايام القليلة الماضية منذ جاء هذا المكان ، وعلما عنه . قد يكون في الامكان دفع الملل مرة أو مرتين . ويأتي الفرج بعد ذلك ويتحول العسر الى يسر ، وتنقشع السحابة التي تحجب عنه الشمس ، ولكن وقته كله صار على هذا المنوال ـ بلا اية جدة او تغير .

لم يجد شيئا ما ذا قيمة يمكن أن يلهث النظر . درج به أوراق مهملة وبروشتات قديمة ، تركها سلفه له ، وآخر به صور لتحاليل طبية واستمارات خالية ، كان اتجه منها في الايام السابقة اداة للتسلية ، يكتب فيها اسمه ويبتكر امضاءات جديدة ويرسم صورا لفتيات عاريات حاول أن يجعلهن جميلات ولكن ضعفه في الرسم اتاح له أن يتصرف كما شاء في مسخ المخلوقات . أغلق الدرجين في نفاد صبر وراح ظهره على مسند المقعد يدير أن يطرد الهواء المحبوس

في رئتيه ، ويلتقط الهواء النقي من جديد .

لكنه أحس بصلابة المقعد تتخالف مع برودة المعدن لتصابقه أكثر مما لو كانت منفردة ، فقام يتمشى ، يدرع ـ كعادته ـ أرض الحجرة جيئة وذهابا ، في الرواح يعاوده الدولاب برجاحه ، اللامع والحقن مرصوصة في داخله ، كأنها جيش من الدمى التي بعث بها الاطفال مرتين على الاكثر ثم يملوها بعد ذلك وأدوات الاسعاف السريع من صبغة يود وقطن وشاش ، وعلب البرشام وغيرها من الادوية ، نظرة واحدة القاها على الدولاب في رواحه حملته يشعر بالملل من جديد، استدار راجعا ليعيد المكتب الذي هرب منه والكرسي الصلب بمنظره البرودته وصلابته ، ونتحة عليها صورة الملك بطربوش فاقع الاحمرار يكاد يميل من نشوة الطعمة وجلال السلطان ، وصدره مردعم بأوسمة وياشيي لا حصر لها . في الايام القليلة الماضية التي قضاها في هذه الحجرة بعد أن تسلم عمله الجديد تأمل صورة الملك، وتأمل المكتب والدولاب والستارة المجاورة للباب حتى شبع . وكلما تأملها من جديد جاءه احساس الشبعان الذي يريد ان يتقيأ . أقبل على النافذة يتأمل دبابة تصارع رجاج النافذة لتخرج ، ترى أمامها الافق فسيحا ، والطريق ممتدا ، ومع ذلك لا تستطيع التقدم فتكاد تحن وتسرف في الطنين ، فكر في ان يفتح رجاج النافذة ويطلق سراحها ويفقدها من عذاب الحيرة وبدلا من أن يطلب عبده التومرجي ليقوم بهذه المهمة مر أمامه سؤال هام : ما الذي أغرى هذه الدبابة بدخول الاماكن الضيقة ، انها تولد في الطين ، فلماذا تعيش وتموت ايضا في الطين . عدل عن فكرة اطلاق سراحها، وعاد الى مكتبه وهو يبتسم ويتصور انه قام بعمل ما ، وهمس وهو يجلس : « تستاهل » ، وراح يستمتع الى الطنين كأنه هو سيمفونية رائعة ، ويراقب صراع الدبابة مع جداع اللوح الزجاجي، ويضحك بصوت عال، ويهز ساقيه في حركات رتيبة متشابهة، دون أن يعرف على وجه التحديد هل هذا التصرف راجع الى التلذذ في الدبابة، أم أنه يريد به بعث الدفء في قدميه الباردتين اخرج من جيبه خطابا وصل اليه أمس من أحد أصدقائه ، وأخذ يتسلى بتقسيم جوانب الطرف وقراءة ما عليه من عنوان « الدكتور احمد فؤاد » ـ طبيب مركز البلينا ـ وجه قبلي ـ قطع عليه القراءة ، أو التسلية بمعنى أصح، دخول عبده التومرجي بعد أن طرق الباب ووقف بجانب الستارة ، صامتا لا يتكلم وهو مشاغل عنه بقراءة الخطاب، وأخيرا صاح فيه صوتا أقرب الى الامر دون أن ينظر اليه :

ـ عايز ايه ؟ ..

ولم يصاحا عبده باللهجة الآمرة المتعالية . لقد عاش حياته يسمعها عشرات المرات كل يوم ، حتى صار يألفها ويعتاد عليها ، لكنه لاحظ أن الدكتور الجديد ، أكثر شدة من سابقيه الذين مروا عليه في المركز .

ـ يا افندم النهاردة يوم الكشف ..

يوم الكشف على الـ ..

وفكر عبده في كلمة يقولها ، تقوم مقام الحقيقة وفي نفس الوقت لا تجرح شعور الدكتور الجديد . لم يسعفه لسانه ، فاختار و « تلجلج » ، ولم يجد شيئا يجرحه من هذا المأزق سوى « الرخص » التي جمعها منهن ، فقدمها للدكتور الذي راح يتأملها في عدم مبالاة

يؤكد ذلك انشغاله في فصل خواتم الطرف حتى الآن ، وهو قدميه المستمر ومع انه توقف عن ذلك كله واندمج في تأمل الرخص الا ان الكلمات خرجت من فمه في تكاسل :

– طيب خليهم يدخلوا بالترتيب .. واحدة واحدة واحدة واحدة – .

أسرع عبده بعد الامر وانقسم الدكتور احمد وهو يحرك يده اليمنى راحة بعد أن وضع حطاب صديقه في جيبه . أحيرا وجد ما يسليه، ولاقرف الدنانة وطنينها المزعج، ولا تعب التفتيش ولارقابه منظر محتويات الحجرة ، الدولاب ، والمكتب ، وصورة الملك . فلت الرخص بين يديه يتأمل صور صاحباتها في تقزز ، ويسأل نفسه في دهشة : هل يمكن لهذه الاشكال القذرة أن تثير رغبة الرجال ، أي رجال، ولو كانوا من الفلاحين ؟ لكنه توقف عند صورة واحدة منهن ، حدقت بسحر من نفسه بعض الشيء ، ويلومها لانها وجهت اليه مثل هذا السؤال وتعجلها ان تتأمل معه هذه الصورة حتى لا تسرع مرة أخرى في الحكم . أخذ يعيد ترتيب الرخص ولم ينس أن يحتفظ بواحدة في النهاية .

وكان قد بدا يحس ضياع السأم نسبيا ، وبحلم بشيء يشغله عما هو فيه من ضيق ، فالنساء وان كن أكثر شكاية وتوجعا من الرجال ، عندما يدخلن الى الطبيب ، الا ان حديثهن لا يخلو من تسلية وقد كان في حاجة من يسليه . الآن فقط وبهذه المناسبة ، تذكر تصرفاته مع هذا الصنف من النساء عندما كان في سنة الامتياز يستشفي القصر العيني كان يبدي لهن احتقارا لا حد له احيانا يتهكم عليهن في ازدراء، وأحيانا أخرى يدق المكتب بقبضة يده ويصرخ بصوت عال لمجرد أن واحدة منهن اقتربت منه أكثر من اللازم . كان يعتبرهن دنانا يتوالد في الترك ويحجو على أكوام الزبالة ليرتع الناس بطبيبه ، وما زال على رأيه حتى الآن ، ولم يحاول ولو مرة واحدة أن يعرف الظروف التي دفعتهن الى هذا الطريق ورغم كل هذا فقد كان يحس بالندم في أوقات كثيرة على تصرفاته معهن . ولم يتم لسلة كاملة في سنة الامتياز وهو يفكر في ذلك ! وفي الصباح حاول أن يعرف من أصدقائه معلومات عنهن . وفي النهاية تأكد انهن مخلوقات ضعيفة صعاليك لا تستحق الاحترام !!

تحرك الباب ، وحدقت ضحة خلف الستارة ، ثم عاد الى الانغلاق .

وتقدمت الحالة الاولى ، تتربع في مشيتها كأنها واقعة تحت تأثير مخدر ، تقدمت حتى كادت تلامس المكتب فأشار اليها بالابتعاد .

ألقى عليها نظرة سريعة ، جمعت مع كل ذلك الاوراق الذي بيديه ، ثم وقع على الرخصة وتركها تتصرف .

كان يعلم مقدما أنها مريضة بأكثر من مرض ، ولكن لماذا يتعب نفسه ويرهق أعصابه في معالجة هذا الصنف القذر ، لقد اختار هذا الطريق لنفسه ، فلا أقل من أن يموت ، كما عاش ، في الطين لا أقل من أن يريح الناس منه .

وتكرر هذا المشهد ثلاثين مرة . تدخل الواحدة منهن بجلباب أسود طويل تسبقها رائحة الخمور ، العينان زائغتان، تدوران في الحجرة كأنهما تبحثان عن شيء ضاع منهما ، أو تتوقعان هجوما من شخص ما ، والشفة السفلى دائما مرتخية متدلية الى أسفل ، كأنها لصقة أصيبت بالاستعمال وتعطل الزمرك

الوجه لا يظهر سوى الكبش والكمين

شعر بالارهاق يمتص كل جدوده ، وهو يستقبل الحالة الاخيرة وبدلا من السام أخذ الصداع يتسلل الى رأسه وبدأت عيناه تدمعان ، كانما تحالفتا مع الصداع ضده ، والساعة ما زالت تتحرك ببطء نحو الحادية عشرة ، والوقت امامه طويل يحمل معه متاعب ، سوف يقضيه في سام يضاعف من عدد الساعات ويشحنها بالعذاب ، سيعود للدبابة يراقبها وهي تصارع حداع الليل الزجاجي ، ويعود ايضا لتأمل البدولات الزجاجي ، ومكتبه بالخطوط العامضة التي رسمها بسائله دوقه ، بالمحتويات القديمة التي تضمها ادراجه ، وسيعود ايضا لتأمل صاحب الطربوش المائل والنياشين المتعددة . لا بأس من قضاء الوقت مع الحالة الاخيرة . دخلت عليه فراح يتأملها وهو متعب في صمت ، كانت هي صباحية ، الرخصة ، التي احتفظ بها حتى النهاية ، ولكن ما أكثر ما تحظى الصور عندما يحدقها الصور ، وتخدلها براءة المصور ، ربما أقساها عندما تحول ـ من غير قصد ـ أن تمسح الخديعة كانت الحالة الاخيرة تقف على بعد ، ويبدو أن ذكاءها هداها الى ذلك حتى لا تثير غضب الطبيب وقد شعر معها بالراحة التي افتقدها مع الباقيات ، وهي ينظر اليها لاول وهلة يظن أنها نسخة رميلاتها ، وتكاد تكون (نسخة بالكربون) منهن ولكن اذا امعن النظر وجد الاختلاف واضحا . حاجباها أسود طويل ، فيها من رائحة القرية عطر ازهارها البرية التي لم يعرفها احد ، عيناها مركزتان على المكتب في تحدي ، وان كان بداخلهما شيء من الدلة والانكسار ، سمتها السهل



قال لها ـ محاولا تمديد الوقت بعد أن تنبه الى ان يتأملها ويطيل النظر اليها :

ـ اسمك ايه ؟

فاجفلت شفتاها في رعشة وضاعت ، الرعشة ، التي كانت تربطهما ، وتدلت الشعلة السفلى في استرخاء ، وراح هو يراقب كل ذلك بنظرته المحتقرة المتعالية ، وينتظر الرد ، وبترقب سماعه منها ـ كان يعرف مقدما أن اسمها ، ناعسة ، وانها اجملهن وأكثرهن شهرة منذ جاء الى الصعيد واستلم العمل ، وهو يسمع عنها يبدو أن هندا هو سبب دلالها وانتشارها الصمت ، ولكن مع من ؟ ضاق ذرعا بها ، وتجمع الارهاق والصداع في قبضة يده وهي تهوي ارض المكتب

ـ بأقول اسمك ايه ؟ ..

ورأى الاختلاجة هذه المرة في عينيها ، وقبل هذه اللحظة لم يكن يتوقع أن شيئا ما سيحدث بهذه الصورة وعلى هذه الدرجة من الاهمية ، وليس في طاقة الانسان أن يبدأ في مثل هذا الموقف حتى لو رأى بنفسه القدرة على ذلك لما توقع ما حدث ، هناك كائنات حية كان يعتقد انها اعتادت على الالم حتى أصبحت لا تحس به ، أما الآن فقد تغير عنده هذا الاعتقاد ، وانطلقت مفهوماته القديمة راسما على عتبة بعد أن رأى هذه الاختلاجة في عينيها ، كانت قد اكتفت من الكحل فيهما ، فسال جزء منه مع دموعها وافسد زينتها ، وفي دقيقة كانت صفحة وجهها قد تغيرت ، صار خطان من الدموع في طريق متعرج انتهى بها الى أسفل الذقن حيث تم بينهما اللقاء ، وبدأت تشهق شهقات سريعة متوالية ، وسمعها بعد ذلك تبكي

بصوت مسموع، كان واضحا انها كتمت شعورها بطريقة غير متوقعة .

وقبل أن يتمالك نفسه لمواجهة الموقف فوجىء بعبده الشورجي يهجم عليها ويحاول انتزاعها من مكانها والقائها في الخارج ، مفاجأة لا تقل في خطرها عن الاولى .

لم ير، وهو يفتح الباب ويدخل، ولو كان رآه لما استطاع أن يمنعه ، لان الامور تمت بسرعة . يبدو انه سمع نكاءها فقام بهذا التصرف الذي ظن أنه من واجبه ، تشبثت «ناعسة» بمكانها ، فصفعها عبده، وهي تقاومه بكل ما تملك المرأة من أسلحة، والدكتور احمد يقاوم رغبة قوية في دخيلة نفسه ، أوشكت على الظهور ، ويسأل نفسه هل هي الدوافع القديمة التي كانت تثور في داخله ، عندما كان يستشفي قصر العيني ؟ والا فما سر احساساته تجاه القصر لانه تسبب في كل هذا .

حاول أن يبدو هادئا ، وهو يتكلم حتى لا يلاحظ عليه عبده أي شيء .

ـ سيبها يا عبده ... واخرج انت بره ...

فأطاع الامر وأغلق خلفه الباب وهو يحاول أن يخفي نظرة استغراب واحتشت هي بالبكاء من جديد ، ولكن في صوت منخفض هذه المرة ... حاولت أن يهجم عليها عبده للمرة الثانية

ولم يكن هذا في صالح الدكتور بأي حال ، فهو وان كان يأثر بكاء النساء عامة، الا أن البكاء اختلفت له عبده وقع خاص . لا يكفي بادانة العشرة المتعالية ـ فوق عبده فقط ، وانما يهدم كل الاستحكامات التي ترتكز اليها في تصرفاته . لهذا لم يكن غريبا أن يقوم من مكانه ويتجه الى الدولاب ، ويخرج منه ادوات الاسعاف ، ليوجه بها خطا رفيعا من الدم كان قد بدأ يتدفق من فمها ويختلط مع الدموع .

ـ حكم الزمان يا باسعادة لعبدي .

اعتبر كيانه زعما منه وهو يسمعها تنطق بهذه الجملة ، ولكنه استمر في عمله ، يمسح آثار الدم من فمها ، ، والكحل ، من عينيها وخديها ، وبدت له في النهاية اجمل بكثير عن ذي قبل ، كصفاء المرضى وهم في دور النقاهة بعد زوال المرض . أخذ يعاملها بالعقل كما لو كانت مريضة ، رنت على كتفيها وهو يقول في رقة

ـ مالكيش حد علانة غير دي يا ، ناعسة ، ... ؟

سكتت فترة قصيرة من الزمن فترة ما عاد بعدها يعصب أو يثور لو طالت حتى الى ساعة ، طن خلالها أنها عادت الى سابق عهدها ، الى الصمت الغامض الحزين ، ولكن فمها تحرك بعد برهة ، وخرج منه صوت متقطع، باتي عاده بعد البكاء . كلماته متعثرة ممزقة كانيابا تفترسها نوازع الكبرياء ..

ـ ياما اشتغلت يا بيه ، من صغري عايشة في نار ، كل يوم في الغيط ، أشيل سبخ وتراب ، وتوبي مترقع ، أبوي حدوه في النار وأخوي بقى بعدني، عريت ع البندر ، كان بدي اعيش في أمان ، وأحاصر النار ، وألبس حرير بصوي ، وجعت أموت م الجوع .. ،

وقاطعها الدكتور أحمد وهو يطلب منها أن تجلس على الكرسي وتهدىء نفسها حتى يستطيع الكشف عليها ، وضع السماعة على صدرها ، دقات القلب غير منتظمة . اظافر يديها بيضاء . رجح أن تكون مصابة بالديدان الى جانب كونها فعلا مصابة بمرض تناسلي .